أحمد بن علي بن خاتمة الأنصاري الأندلسي
"مقاربة بيوغرافيا"

أ/صاندرا توابى
جامعة بسكرة

الملخص :

عاشت غرناطة فترة مزدهرة على حساب بعض المدن الأندلسية التي بدأت تتهاوى، وفي هذه الفترة سطع نجم أحمد بن علي بن خاتمة الأنصاري الأندلسي، الطبيب العالم الفقيه، والأديب البارع والشاعر الفذ.

الكلمات المفتاحية: الأندلس ، غرناطة، المرية،الشعر، الموشح،ابن خاتمة

Résume:

Alors que d'autres villes de l'andalousie ont connu un déclin avéré, Grenade a, quant à elle, vécu une ère prospère durant laquelle avait brillé notamment Ahmed ben Ali ben Kha'tima el Ansari el Andaloussi, un éminent docteur et savant, un valeureux docte et homme de lettre, et un poète des plus talentueux.

Mots clés: Grenade. Andalousi. Almeria. Poésie. Art lyrique andalous. Ibn kha'tima

تصدير...

المعروف أن المشرقالعربي هو منبع الثقافة العربية و منطلق الآداب و الفنون التي شعَّت على مختلف الأقطار التي اعتنقت الإسلام ، هذا أمر لا ينكره أحد، و لكن سبق المشرق باعتباره منهلا لهذه الآداب لا يمنحه صفة التفرد و الاحتكار.كان لحاملي راية الإسلام والتبشير به من الصحابة المجاهدين فضل في نشر اللغة العربية في كل الربوع التي ارتفعت فيها راية الإسلام، و كانت الأندلس إحدى هذه الربوع التي عمَّر فيها الأدب العربي قرونا من الزمن، و نما و تطور إلى أن صار يزاحم نظيره في المشرق العربي، و لعله تفوق عليه في بعض الفنون و الموضوعات.

لقد أصبحت الأندلس مركزا مشعاً ليس على الأقاليم و الحضارة العربية في المشرق فحسب بل على القارة و الحضارة الأوروبية ذاتها ، و نافس أدباؤها و شعراؤها نظراؤهم في المشرق العربي في كثير من الفنون النثرية و الشعرية و أساليب التعبير. و ساعدهم في ذلك البيئة الأندلسية التي كانت مختلفة تماما عن بيئة بلاد العرب التي تأثر بها معظم شعراء الأندلس الذين حذوا حذو شعراء المشرق العربي في بداية الأمر ثم سرعان ما انفردوا بشخصيتهم الأدبية والفنّية التي أضفت عليها بيئة الأندلس طابعها المميز ، فساهموا في الفنون الأدبية نظماً وتأليفاً، وأضافوا إلى تراث أجدادهم ما يدل على نصاعة بيانهم وألق عبارتهم وجودة صياغتهم. فكانت خطاباتهم الشعرية محوراً أدبياً من حيث هو عمل فنّي، أو "خطاب نوعي"(اذكري مصدر الاقتناس) حسب اصطلاح تودوروف؛ و من حيث هوعمل جمالي، أو "فن الكتابة" الذي يؤهل عملا ما لأن يكون عملا أدبيا، ويحقق بهذا شرط الأدبية على حدّ تعبير "جاكبسون".

و من الذين أبدوا موهبة فنيّة وجمالية فذّة ، كشف فيها عن قدم راسخة في شعرية الأساليب وخصوصيات التأليف: "**علي ابن خاتمة الأنصاري الأندلسي**" الأديب الشاعر الكاتب العالم المصنف المتفنن الزاهد، كما يصفه صديقه و معاصره الوزير ذو المقام الرفيع "**لسان الدين ابن الخطيب**" في مؤلفه الشهير "**الإحاطة في أخبار غرناطة**" و ذكر أنه :" **حسنة من حسنات الأندلس و طبقة في النظم و النثر**".

غرناطة

و كان القرن الثامن أزهى عصر عرفته مملكة غرناطة، التي أخذت تسترد نوعاً من القوة و التمكن و تعيد إلى الحياة ذكريات قرطبة و إشبيلية، سواء في ذلك الحياة السياسية، أو الحياة

الثقافية عامة والفكرية الفنّية خاصة، فقد شهدت في النصف الأخير من هذا القرن، ذروة قوتها و ازدهارها، حيث سطع في هذه الفترة أعظم مفكري الأندلس، و أعظم كتابها و شعرائها، كما طبعت بتميّز إنتاجها الأدبي في النظم و النثر، وسعت إلى الحفاظ على تراث الأندلس، وإثراء الحياة الفكرية بالمؤلفات الجيّدة في مختلف العلوم و الفنون، و إنشاء المدارس و المعاهد.و قامت بإيواء الوافدين إليها من المدن الأخرى وكان من بينهم العلماء و الكتاب و الشعراء. يقول محمد عبد الله عنان في مقدمة الإحاطة:

«كان القرن الثامن الهجري في مملكة غرناطة بالنسبة لدولة التفكير و الأدب عصر النضج و الازدهار، وفيه ظهرت طائفة من أكابر المفكرين و الشعراء الذين أعادوا روعة الأدب الأندلسي في أعظم عصوره، مثل ابن سلبطور الهاشمي و ابن خاتمة الأنصاري شاعر المريّة، و الوزير أبو عبد الله بن الحكيم اللخّمي، و الوزير ابن الحيّان ابن جزي، و الوزير ابن الخطيب، و الوزير ابن زمرك، وأبو سعيد بن لب و غيرهم ممن حفل بهم هذا العصر، وزخرت دولة التفكير و الأدب بآثارهم التي انتهى إلينا منها الكثير. »[1]

فقد ساهم هؤلاء الأعلام الكبار في الفنون الأدبية نظماً و تأليفاً، وأضافوا إلى تراثهم ما يدل على رغبتهم في مجاراة علماء الأدب العربي و فحول الشعراء من خلال نصاعة بيانهم، و ألق عبارتهم و جودة صياغتهم.

و يعد القرن الثامن الهجري «عصرًا مميزًا بالنظر لما يشتمل عليه من أعلام مشاهير في فن الشعر و الموشحات. و إذا أجلنا النظر في المشرق العربي خلال هذه الفترة فإنّنا لن نجد من يماثل ابن الجياب و ابن الخطيب و ابن زمرك و ابن خاتمة و غيرهم كثير فقد عرفت الأندلس تطورًا أدبياً ملحوظاً بالمقارنة مع المشرق أثناء هذه الفترة»[2] ومن الشعراء الذين حفل بهم بلاط غرناطة، الأديب الشاعر الكاتب العالم المصنف المتفنن، أبو جعفر أحمد بن علي بن خاتمة الأنصاري الأندلسي المريّني، من أهل مدينة المريّة إحدى مشاهير البلاد في مملكة غرناطة.

بيوغرافيا الأديب.

هو«أحمد بن علي بن محمد بن علي بن محمد بن خاتمة الأنصاري من أهل المَرِّيَّة يكنى أبا جعفر و يعرف بابن خاتمة »[3]. وهي أوفى ترجمة خصّه بها صاحبه و معاصره الوزير لسان الدين ابن الخطيب. وأورده ابن الأحمر في مؤلفه نثير فرائد

الجمان على أنه « أبو جعفر أحمد بن علي بن خاتمة الأنصاري المريّني».[4]و تشهد مؤلفات معاصريه التي ترجمت له* في مواضع مختلفة على هذا النسق.

لم تحدد كتب التراجم و كتب تاريخ الأدب العربي وغيرها من التواريخ العامة تاريخاً محدداً لولادة الشاعر؛ و يذهب عمر فروخ إلى أنّه «ولد في المريّة في مطلع القرن الثامن للهجرة فيما يبدو».[5] ودقة التأريخ لدي المؤلفين العرب القدامى بالساعة واليوم والشهر والسنة لم تكن معروفة عندهم لحداثة عهدهم بالكتابة.

و لمحمد رضوان الداية رأي آخر في تاريخ ولادة هذا الرجل يقول فيه: إنه « ولد في أواخر القرن السابع و عاش إلى سنة 770 هـ. و اشتهر في مدينة المريِّة، إحدى مدن الأندلس الكبرى في دولة بني الأحمر بغرناطة».[6] وتؤكد المستشرقة الأسبانية سوليدادخيبرت* Solidad Gibert أن فقرات الثناء التي أطراه بها معاصروه الذين ترجموا لحياته« كانت تنضح وداً و إعجاباً و تطري أخلاقه و مستوى مؤلفاته وتشيد بمكانته الأدبية الضائعة في صور بلاغية معقدة لا تصور ما كان عليه في دنياه ولا تذكر تاريخا لميلاده. وهذا ما ينمّ . احتمالا. عن شيوعذوق أدبي يتميّز بالغموض طرحه الموقف السياسي الدقيق في الأيام الأخيرة لغرناطة بني نصر[...] و تضيف أن ما حدّده **بروكلمان** و **جيانجوس** و **درنبورج**بعام 714 هـ ،على حين أن **بونس بيوجيس** حدّده بعام 734هـ ، و كلاهما خاطئ دون أدنى شك، ذلك أن الديوان يحمل تاريخ 738 هـ و ليس ممكناً أن مؤلفه أنشده و له من العمر أربعة أعوام و لا حتى أربعة عشر عاما». [7] ولم تقف المصادر السابقة على تاريخ وفاته وإنّما بقيت تحوم حول بعض التلميحات التي ذُكرت في سياقات أخرى: فابن الخطيب في إحاطته أشار أنه على قيد الحياة في ختام ترجمته له و ذلك ثاني عشر شعبان عام سبعين وسبعمائة؛ على أنه ترحم عليه في الكتيبة الكامنة من سنة 774هـ ، وألفه بعد كتاب الإحاطة.

ويذكر ابن أبي شنب* أنه «مولود بمدينة المريّة من شرق الأندلس و كان حيا بها في 12 شعبان سنة 770هـ ؛ و نَقل عن احمد بابا في نيل الابتهاج أنه توفي في 7شعبان سنة 770هـ و في عمره نحو 60 سنة.(ويضيف) أنه من هذين القولين يمكن أن يكون ابن خاتمة توفي إما في 17 أو في 27 شعبان من السنة المذكورة، إذا فرضنا أن الناسخ للنيل نسي ذِكر العشرات؛ وعلى هذا يمكن أن يكون ولد سنة 710هـ ».[8] وهذا الاختلاف في تحديد تاريخ الوفاة هو الاخر يعود إلى عدم وجود سجلات الوفيات للإمارة التي ينتمي له أو

للبلدة التي ولد فيها لأن الحالة المدنية لدى العرب والمسلمين آن ذاك لم تعرف وإن أدركوها لم ينشئوا لها ديوانا للضبط رغم تقدمهم في بعض العلوم والفنون وخاصة العمران، وإن كان بعض المؤرخين المعاصرين لمثل هذه الأحداث يدونون في أوراقهم أو في كراساتهم تواريخ هذه الأحداث بدقة؛ لكن بقلة، لعدم وفرة وسائل الاتصال آنذاك ولضياع أكثرها بعد استرداد الأندلس وانتزاعها من العرب المسلمين.

وكماهو الاختلاف قائم في تحديد تاريخ الميلاد والوفاة، فحتما سيكون هناك تضارب في المدة الزمنية التي عاشها الرجل فبعضهم يرى أنه عاش ستين عاماً ،على حين يرتفع بها آخرون إلى سبعين ، و لا يمكن الجزم بأي منها. «و من تاريخ جمع الديوان و هو 738هـ يمكن القول بأن الأكثر احتمالا أن ابن خاتمة رحل عن الحياة و هو في حوالي السبعين من عمره».[9] إذن هذا التضارب في تاريخي ميلاد ووفاة الرجل، والمدة الزمنية التي عاشها يعود إلى انعدام التوثيق الآني.

شيوخه

تلقى **ابن خاتمة الأنصاري** الأدب و العلوم على نفرٍ من الشيوخ، فقد لازم الشيخ الخطيب أبا الحسن على بن محمد بنأبي العيش المرّي ، قرأ عليه و انتفع به. والشيخ الصالح أبو إسحاق إبراهيم بن العاص التّنوخي. وروى عن الراوية المحدِّث الرحّال محمد بن جابر بن محمد بن حسّان الوادي آشّي؛ وسمع عن الشيخ أبي البركات ابن الحاجّ، والشيخ الخطيب أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن شعيب القيسي من أهل بلده؛ و القاضي أبو جعفر القُرشي بن فركون. وأخذ عن الوزير الحاجّ الزاهد أبي القاسم محمد بن محمد بن سهل بن مالك. وقرأ على المقرئ أبي جعفر الأغرّ،وغيره».[10] و هي أوفى قائمة بشيوخه وأوردها **ابن الخطيب** في إحاطته، وقامت المستشرقة الإسبانية "سوليدادخيبرت" بترجمة وافية لكل اسم من أسماء هؤلاء الشيوخ أثناء تحقيقها لديوان ابن خاتمة وترجمته إلى الإسبانية,

و يذكر أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي العافية المكناسي ثم الفاسي المشهور بـ: ابن **القاضي*** أن"محمد بن محمد بن عبد الواحد أبو القاسم البلوي ت 747هـ" أستاذا لابن خاتمة، وكان قاضياً لمدينة المريّة وكذا لكأبو عثمان سعد بن أحمد بن ليونالتجيبي.[11] هذا الذي توقفت عليه في كل ما تعلق بأساتذته.

تلامذته

ولم يرد في مؤلفات معاصريه ذِكر صريح عن تلامذته إلا إشارات خاطفة لبعض تلامذته نذكر منهم:

1- علي ابن لسان الدين ابن الخطيب المولود بالمريّة سنة 765هـ . ويذكر **المقري** في **أزهار الرياض** أنّ : « أولاد ابن الخطيب ثلاثة: عبد الله ، ومحمد ، وعليٌ . و عليٌ منهم هو صاحب السلطان أحمد المرينّي الملقب بالمستنصر».[12]

2-**محمد بن علي بن محمد بن علي بن محمد ابن خاتمة الأنصاري*** وهو- تقريبا- الوحيد من أسرة ابن خاتمة الذي عُرفت بعض أخباره. ويقول عنه **ابن الخطيب** في **الإحاطة** إنّه «تأدّب بأخيه و تهذّب، وأراه في النظم المذهب، وكساه من التفهّم والتعليم البرْد المذهّب، فاقتفى واقتدى، وراح في الحلبة واغتدى، حتى نبل وشدا، ولو أمهله الدهرُ لبلغ المدى، وأما خطّه فقيْدُ الأبصار، وطُرْفة من طُرَف الأمصار، واعتُبط* يانع الشّبيبة، مخضرّ الكتيبة ».[13]ولو كتبت له الحياة وطول العمر لكان له شأن كبير في علم الأدب وفنونه,

3- أبو جعفرابن زرقالة: هو واحد من الذين لازموه وأخذوا عنه« وجمع ما يتصل بالتورية من شعره. ولم يرد في مجمل كتب التراجم ما يحيل على نسبه» .[14]

4- أبو عبد الله محمد بن ميمون: أشارت له المستشرقة الأسبانية "سوليدادخيبرت" في دراستها «أنّه الأديب المقرئ والمحدّث الغرناطي ، توفي في اليمن عام 790هـ أو793هـ بعد أن رحل وجال في تونس ودمشق ومصر» .[15] وقال ابن الأحمر في صدر ترجمته له: «إنه كان يقرئ العربية و سائر العلوم بها» وعلق على هذه الجملة "رضوان الداية" قائلا: «هذه العبارة كافية للدلالة على غزارة علمه و شموله وعلى مقدرته و تمكنه».[16]وكان مدرسا بالجامع الأعظم في المريّة، فدرس النحو و البلاغة و الأدب و« كان في الوقت نفسه يقوم بعقد الشروط . ثم درّس في المدرسة اليوسفية التي أنشأها في غرناطة **أبو الحجاج يوسف الأول بن الأحمر*** 733-755 هـ» .[17]

مؤلفاته:

تنوعت الكتابة عند أديب ألمريّة الشهير "ابن خاتمة الأنصاري" واطّردت في تآليف عديدة تباينت مشاربها و مناهلها؛ فكشفت عن حقيقة ثقافته الموسوعية التي جعلته بالفعل مثقفا أكثر منه شاعرا أو أديبا، ونذكر من مؤلفاته:

1- المؤلفات التاريخية :

- مزيّة ألمريّة على غيرها من البلاد الأندلسية : أرّخ فيه لمدينته الأثيرة وتحدث عن جغرافيتها وتاريخها وحضارتها وترجم لرجالها والطارئين عليها. اعتمده **ابن الخطيب**، و**ابن القاضي** و**المقرّي** الذي قال عنه :« مجلد ضخم تركته من جملة كتبي بالمغرب».[18] هو مؤلف مفقود كما هو سائر المؤلفات التراثية التي تعرضت للتلف الاستعمار.

- تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد*: محتوى الكتاب يمتد إلى حقلي التاريخ و الطب «وفيه يدرس ابن خاتمة العدوى و أسبابها بعامة و مرض الطاعون الذي اجتاح المريّة بخاص» .[19]وهو جزء مشتمل على عشر مسائل في الوباء الذي أباد في سنة 749هـ وسنة 750هـ عدة مدن في آسيا وإفريقيا وأوروبا. قال عند شروعه في الكلام على الداهية الدهياء« أنها هجمت على إفريقية ودخلت أرض مصر ثم انتقلت إلى إيطاليا وفرنسا فجزيرة الأندلس فخرّبت كثيرا وأضرت بأهل المريّة أكثر مما أضرت بغيرها، و اشتدت عليها وطأتها نحو 12 شهرًا، أي من ربيع الأول سنة 749هـ إلى أوائل السنة التي بعدها»[20]. ويوجد من هذا الكتاب نسخة في الإسكريال تحت عدد 1785 و أخرى في مكتبة برلين الملكية تحت عدد 6369.

2- المؤلفات اللغوية:

- إيراد اللآل من إنشاد الضّوال و إرشاد السؤال:وهو كتاب اختصر فيه الدراسات اللغوية التي شرحها قبله ابن هشام السبتي، ونظّمها بن هاني اللّخمي الذي رتب الكتاب و علّق عليه و وضع له عنوان **إنشاد الضوال وإرشاد السؤال**. وقد نشر الكتاب المستشرق الفرنسي "ج.كولان G.S.Colin " في مجلة "هسبيريس"، في المجلد الثاني عشر1931م ، ص1-32 . ونشرها ثانية د.إبراهيم السمرائي في بغداد، في كتابه "**نصوص ودراسات عربية و إفريقية**"[21]، والكتاب في حقيقته هو نص منقول عن النص الأصلي المفقود لابن خاتمة .

- إلحاق العقل بالحسّ في الفرق بين اسم الجنس وعلم الجنس: وهو كتاب في النحو ذكره أحمد بابا التنبكتي في كتابه **نيل الإبتهاج**[22].

3 - المؤلفات الأدبية :

- رائق التحلية في فائق التورية *: مجموع من الأشعار لابن خاتمة. تلقاها عنه سماعاً تلميذه ابن زرقالة وجمعها في كتاب.وهي ما يتصل بالتورية مما لم يرد في الديوان. «توجد

له ثلاث مخطوطات: واحدة في الإسكوريال تحمل رقم 419. والثانية في المكتبة الوطنية في باريس تحت رقم 5749، والثالثة في الخزانة العامة في الرباط تحمل رقم 1826»[23].

- **الفصل العادل بين الرقيب والواشي والعاذل :** وهو رسالة صغيرة في أسلوب مسجوع ، للتمييّز بين أعداء العشاق : الرقيب والواشي والعاذل. مخطوط هذه الرسالة في باريس تلى نص مخطوط الكتاب رقم 5749. و سبق أن نشرت هذه الرسالة وتُرجمت إلى اللغة الإسبانية في مجلة الأندلس، المجلد 18، عام1954م، ص 1-16.[24]

الديـــوان: وهو على قدرٍ كبيرٍ من التفرّد ؛ فقد جمعه بنفسه و خطّه بيده. و عنوان الكتاب ينبئ بشيء من هذا فهو:"**من شعر كاتبه عبد الله أحمد بن علي بن محمد بن خاتمة ، لطف الله به** ". ولا يوجد اسم لناسخ في أي مكان آخر من الديوان ، كما هو الحال في معظم المخطوطات التي نسخها غير مؤلفيها، وأخيرا فإن المؤلف يختم مجموعته الشعرية بهذه الكلمات :

« انتهى التقييد ، و الحمد لله حمدَ الشاكرين ، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين ، مولانا محمد المصطفى ،وآله وصحبه الطيبين الطاهرين ، وعلى يدي ناظمه عبد الله المستغفر لذنبه: أحمد بن علي بن محمد بن خاتمة ، لطف الله تعالى به ووفقه. وذلك بمدينة ألمريّة، حاطها الله تعالى؛ بتاريخ أخريات سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة »[25] وهذا ما يشير حقيقة إلى أن **ابن خاتمة** نفسه، هو الذي سطّر صفحات ديوانه الذي توجد مخطوطته في مكتبة الإسكوريال.[26]

محتوى الديوان :

يحتوي الديوان على أربعة أقسام و خاتمة.

الأول في المدح والثناء.

والثاني في النسيب والغزل.

والثالث في الملح والفكاهات.

والرابع في الوصايا والحكم

والخامس في نبذة من التوشيح .

فأطرى القسم الأول في شكر الله و مدح رسوله (ص). في تسع قصائد طوال، ولغة صوفية ومجازية. تنبّه بصدى الفكر الصوفي في نظمه ، من جهة ؛ وتبعث على حسّ الصّدق وتجاوز المطامح السياسية التي طبعت أشعار معاصريه من جهة أخرى. فضل شعره على

هامش ذلك التيار السياسي العام، وتلك البيئة الثقافية. وما يُسجل كملمح على موضوعات قصائد هذا القسم أنها فلسفة حياة قَصَد فيها ابن خاتمة وأَجاد.

وأما القسم الثاني والذي خصّه بالنّسيب والغزل. فيضم تسعة وأربعين قصيدة ورتبها على حسب طولها. وعنيت بالوصف أكثر مما عنيت بالغزل .وألمت بمحاسن الكلام وألق العبارة وجودة الصياغة، ويظهر عليها أسلوب إجرائي مخصوص تميّز بلغة شعرية انحرف بها ابن خاتمة عن ما هو مألوف في كتابات غيره/ معاصريه.

والقسم الثالث خصه للملح والفكاهات وهو يعكسذوقاً أدبياً عالياً. فبالرغم من نصيبه القليل من محتوى الديوان، إلا أنه تربّع على أهمية خاصة فانفرد بشعره في هذا النوع، و بانت شاعريته التي اختلفت إلى حدٍ ما عن ما ميّز القرن الثامن الهجري /الرابع عشر الميلادي في الأندلس (وهو الانشغال بتوظيف بلاغي معقد لإظهار القدرات الجمالية و الفنيّة). فقد استعرض ابن خاتمة فيه ألوان لفظية بديعية دلّت على نبوغه وإبداعه الشعري.

و يلحق به قسم الوصايا والحكم الذي يزاحمه في مساحة أقل حظ على خريطة الديوان. فمن خلال مقطوعاته التي رسمت حدود الحكمة والنصيحة، امتدت تأملاته الفلسفية العميقة والتي نلمسها مبثوثة في معظم أغراضه وموضوعاته الشعرية. فطبعت نزعة الزهد شعره الحكمي ويبدو أن نفسه كانت مهيأة لهذا النوع من الشعر بحكم ثقافته الدينية؛ فقد عرفنا في شيوخه بعض العلماء من زهاد و وعاظ . علاوة على تأثره بنزعة التصوف والتي كانت سائدة آنذاك عند نفرٍ من علماء الأندلس وخطبائها.

وختم الديوان " بنبذة من التوشيح الذي له في مضمار الأدب المجال الفسيح " – على حدِ قوله و قد توّجت هذه الموشحات أشعار ابن خاتمة ودلّت على موهبته الفذّة في هذا الفنّ الأندلسي الخالص. الذي ابتدعته ظروف اجتماعية وعوامل بيئية معينة. و تتميز الموشحات بالأقفال والخرجة التي تجيء في معظمها عامية اللغة على غير عروض البحور التقليدية؛ فهي ظاهرة موسيقية غنائية تنم عن ظاهرة أدبية ولغوية تجنح إلى أسلوب الانحراف ، الذي يرتبط بذلك الانزياح والتجاوز في معنى خرق السنن والعدول والمخالفة. ويتعلق إذن **بشعرية خاصة.**

مكانته العلمية والأدبية

كانت للأديب مكانة مرموقة في الوسط الأدبي والعلمي ويعد من أعيان عصره في هذا المجال، وقد أثنى عليه ابن الخطيب في إحاطته بأخبار غرناطة قائلا:« هذا الرجل: صدر

يشار إليه،طالب متفنّن، مشارك، قويّ الإدراك، سديد النّظر قوي الذهن، موفور الأدوات، كثير الاجتهاد، معين الطبع، جيّد القريحة، بارع الخط، ممتع المجالسة، حسن الخلق جميل العشرة، حسنة من حسنات الأندلس و طبقة في النظم و النثر، بعيد المرقى في درجة الاجتهاد و أخذه بطرق الإحسان؛ عقد الشروط و كتب عن الولاة ببلده، و قعد للإقراء ببلده، مشكور السّيرة، حميد الطريقة في ذلك كله». [27]واعترف بفضله في بيئة هوت ثقافياً وأشادوا بخصاله وسعة ثقافته وأدبه وعلمه وفضله ويكفيه هذا الإهداء المتمثل في هذين البيتين:

قسماً بالكواكبِ الزهْرِ و الزهــرُ عـاتِمةْ

إنّـما الفضل ملـتّ خُتمت بابـن خاتـمةْ[28]

كما أورد له بن الخطيب ذكرًا مطولاً في مؤلفه **الكتيبة الكامنة** فوصفه « بناظم درر الألفاظ ومقلد جواهر الكلام نحور الرواة و لبآت الحفاظ، ذو الآداب التي أضحت شواردها حلم النيام و سمر الايقاظ، وكمن في بياض طرسها و سواد نقسها سحر اللحاظ؛ اشتهر اشتهار البدر ليلة الصحو، و عمرو بن قنبر* في صناعة النحو، وأمن ثبت فضله من المحو، و كان العلم الذي اليه يشار، و تحدى العشار، لا يساجل بحره بالدلاء، و لايسد مسده بالبدلاء، مجموع فنون، و خوان ضب منها و نون، قلّ ان يذكر ضرب من المعارف إلا عرفه، أو يمر بنهر من أنهارها إلا شربماءهواغترفه، وأما الأدب فهو فيه الحجة التي لا تجهل، و المحجة التي قصدها هو الأسهل، مطولاته بحور زاخرة، و مقطوعاته درر فاخرة، ورسائله بالرياض ساخرة، و للنجوم الزهر مفاخرة، إلى الطرف، وطيب العرف؛ خبا بوفاته الكوكب الوقّاد، و ألقى إلى الضّالة المهملة المقاد، واستولى من بعد اليقظة الرقاد، و استعجل النقاد [29].»

واطَّرد له ذكر في مواضع مختلفة من كتاب "**نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب**" للشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني، وفي كتابه "**أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض**".

وفي ترجمة لمعاصره الأمير "**اسماعيل بن يوسف ابن الأحمر**" في مؤلفه"**تثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان**" قائل عنه: « فارس الكتيبة الشّعرية، وعالم القلّة الأشعرية وربّ المدح المبرأ من القدح، وزند الإدراك لمّا ورى القدح المرسل لنحو العيّ من الإفصاح بالسرية، المتكلّم في فنون العموم بتحقيق النّفس السّريّة، وبه افتخرت المريّة، إذ ذاته بحسن الثناء هي الحريّة، و كتب عن أهل بلده للسّلطان فبرز في الكَتْب بتلك الأوطان»[30] لقد وصفه بالفارس

والعالم السيد(رب المدح) والمتكلم وهي صفات لا تكون إلا لرجل نهل من مختلف العلوم والفنون وبرز فيها واستحق بذلك كل هذا الثناء.

أما تلميذه وجامع مؤلفاته **ابن زرقالة*** فيقول عنه:« فلم يخل كل عصر من شاعر يكون شعراء زمانه عيالاً عليه، و يحتاج كل منهم إليه، تنجلي الأيام من نظمه بأنفس من حلا الليالي وتثبته في المعاني. وكان شاعر عصرنا ببلدنا هذا –عصمه الله– الذي رفع شمس الأدب و ضحاها، ومهّد أرض الشعر ودحاها، فتنفس عنه صبح البيان، وانبجس من سحاب علمه قطره الهتّان، وتمتمت له قلوب الأدب بحباتها، وألقت إليه بأفذاذها و ثباتها، فجرى مع الإحسان في طلق فريدو كان له فيه شأو بعيد، شيخنا الأستاذ المتفنن الجليل ، ما عرف المثيل ، مشيّد بنيان الأدب الذي أسس معالمه "أبو جعفر أحمد بن خاتمة"» .[31] مثل هذا الثناء وهذا الإطراء لا يكون إلا لفحل من الفحول الأدب الذي قلما ما يجارى فيه.

وذكرت المستشرقة "**سوليدادخيبرت**" في مقدمة ترجمتها **لـ: "ديوان ابن خاتمة"*** إلى اللغة الإسبانية: «أنه كان شاعرًا وناثرًا ومؤرخاً، ورياضياً و طبيباً، وكاتباً و مقرئاً».[32] و أشار رضوان الداية في تحقيقه لمؤلف **نثير فرائد الجمانلابن الأحمر** إلىأن ابن خاتمة الأنصاري «شاعر كاتب فقيه، متطّبب، متصوف زاهد».[33]

على سبيل الخلاصة:

ابن خاتمة طبيب وأديب ومبدع ظهر في وقت بدأت تتهاوى فيه الحضارة العربية بالأندلس.

له باع في الشعر في مختلف فنونه، أبدع في النسيب والمدح، وله تميز في مجال الملح والوصايا والحكم.

له موشحات لا تقل أهمية عن ما عرف في الأندلس بالموشح وهو الفن الأندلسي الخالص.

ألف في التاريخ واللغة والأدب.

الهوامش

[1]– ابن الخطيب (لسان الدين):الإحاطة في أخبار غرناطة، ت محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي القاهرة

[2] – علي محمد النقراط: ابن الجياب الغرناطي، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، بنغازي، ليبيا،ط1، ص 85

[3] – ابن الخطيب (لسان الدين): المصدر السابق ص 239

[4] – ابن الأحمر (إسماعيل بن يوسف بن محمد) نشير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان، دراسة وتحقيق رضوان الداية، عالم الكتب، بيروت لبنان،ط1، 1986، ص 156

[*] – اطّردت هذه الترجمة فيالكتيبة الكامنةلابنالخطيب .و كذا فينفح الطيب من غصن الأندلس الرطيبوفيأزهار الرياض فيأخبار عياضللمقري.و عند تلميذه جامع مؤلفاته احمد بن زرقالة فيرائقالتحلية . كما أثبتها أحمد بابا التنبكتي في مؤلفهنيل الابتهاج بتطريزالديباج، على هذه الصيغة .

[5] – عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، ط2، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان،1984م، ج 6، ص489

[6] – محمد رضوان الداية: المختار من الشعر الأندلسي، ط3 ، دار الفكر، دمشق، سوريا، 1413 هـ 1992م، ص 191

[*] – **Solidad Gibert** أستاذة الأدب العربي في كلية الآداب بجامعة مدريد المركزية.تخصصت في دراسة الحياة الفكرية و الأدبية في مدينة ألمرية. ووقفت جهدها على تتبع النشاطات الثقافية المختلفة في هذا الثغر الأندلسي الهام ، خلال القرون الثلاثة الأخيرة من حيات الإسلام الإسباني.و قد حققت ديوان ابن خاتمة و ترجمته إلى الإسبانية و قدمت للترجمة بدراسة ممتازة عنه .وعربت هذه المقدمة لما تتسم به من عمق التناول،و منهجية البحث.ونشرهذه الدراسة قسم اللغة العربية والإسلام في كلية اللغات جامعة برشلونة في 1975م.

[7] – ينظر: الطاهر أحمد مكي : **دراسات أندلسية في الأدب و التاريخ و الفلسفة** ، دار المعارف ، القاهرة مصر ط،،1987م ،ص97-98-99.

[*] – عالم و محقق جزائري ولد في المدية في عام 1869م ،التحق بالمدارس المدنية التي أنشأتها فرنسا وفق خطتها في نشر ثقافتها،متحصل على درجة الدكتوراه في الأدب العربي باللغة الفرنسية،اهتم بالدراسات الأدبية و اللغوية و التاريخية و تحقيق الكتب.كان عضو في المجمع العلمي العربي بدمشق و رئيسا للجنة علمية فرنسية بكلية الزيتونية للامتحانات. جمع بين الثقافتين العربية الأصيلة و الغربية الأوربية في كتاباته و مؤلفاته. و نشرت هذه الدراسة في المجلد الخامس لـ: الشهاب بأجزائه الثلاثة:1، 2، 3. وهي دراسة ألقاها ابن ابي شنب في مؤتمر المستشرقين الذي انعقد في أكسفورد في 28 أوت 1928م.تحت عنوان:**رسائل و مقالات ابن خاتمة شاعر عربي أندلسي من شعراء القرن الثامن للهجرة.**

[8] – محمد ابن شنب : **منتخبات في التأليف و الترجمة و التحقيق** ، دار القصبة للنشر، الجزائر،2007م ، ص28-29.

[9] – الطاهر أحمد مكي : **دراساتأندلسية في الأدب و التاريخ و الفلسفة**، ص 101.

[10] – ابن الخطيب لسان الدين: **الإحاطة في أخبار غرناطة** ، المجلد الأول ، ص240.

[*] – صاحب مؤلف **درة الحجالفي أسماء الرجال**وهوعالم جليل فقيه ومؤرخ [11]– الطاهر مكي: **المرجع السابق** ، ص104.

[12]– المقري: **أزهار الرياض** ،ج1 ، ص319.

[*]– هو أخو الشاعر ويكنى بـ : أبي عبد الله توفي بمرض الطاعون عام 750هـ.

[•]– اعتُبط : مات شابا.لسان العرب (عبط).

[13] – ابن الخطيب،لسانالدين:**الإحاطة في أخبار غرناطة**،ت يوسف علي طويل،دار الكتب العلمية، بيروت،لبنان،المجلد الثاني،ط2003،1م،ص345.

[14] – الطاهر أحمد مكي :**المرجع السابق**، ص101.

[15] – **المرجع نفسه**، ص109.

[16] – ابن خاتمة الأنصاري:**الديوان**، تحقيق رضوان الداية، ط1، 1994، دار الفكر المعاصربيروت/ دار الفكر دمشق، ص10.

[*] – **أبو الحجاج**: كان من أعظم ملوك بني نصر و أبعدهم همة، و كان عالما شاعرا، يحمي الأدب و الفنون، تولى الحكمو هو في الساسة عشرة من عمره، وهو الذي أضاف إلى قصر الحمراء، أعظم منشآته و أروعها.

[17] – عمر فروخ: **المرجع السابق**، ج6، ص390.

[18] – الطاهر أحمد مكي ،**المرجع السابق**، ص118.

[*] – و قد قام الأستاذ المصري **طه دنانة** بترجمته إلى اللغة الألمانية في مجلة Areh.fur.Gesh.de. Med المجلد 20 .عام1926م. ص27–81. و عن النص الألماني قام الصيدلي **خوسيه فرناندیثمرتنیث**من مدينة المريّة بترجمة الجانب الطبي منه في مجلة **الحاضر الطبي**ActualidadMedica التي تصدر في غرناطة العدد رقم 403،ص 449–512. و العدد رقم 404، ص 566–588. عام 1958م.

[19] – الطاهر أحمد مكي ،**المرجع السابق**، ص117.

[20] – ابن ابي شنب : **المرجع السابق**، ص30.

[21] – الطاهر أحمد مكي ،**المرجع السابق**، ص119.

[22] – ابن ابي شنب : **المرجع السابق**، ص30.

[23] – الطاهرأحمد مكي:**السابق**،ص.118

[24] – **نفسه**، ص 119.

[25] – ابن خاتمةالأنصاري:**الديوان**، تحقيق رضوان الداية، ص198

[26] – ينظر الطاهر أحمد مكي: المرجع السابق، ص 120

[27] – ابن الخطيب (لسان الدين): **المصدر السابق**، المجلد الاول ص 239–240.

[28]– الطاهر أحمد مكي : **المرجع السابق**،ص98. والأبيات موثقة أيضا في هذا الموقع المتعلق بـ: الموسوعة الشاملة: http://islamport.com/d/3/adb/1/256/1773.html تاريخ الدخول 23جان 2017 الساعة العاشرة صباحا

* – عمر بن قنبر هو: سيبويه

[30] – ابن الخطيب (لسان الدين) :**الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة**، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة ،لبنان، بيروت،ص239،ص.240

[31] – ابن الأحمر :**المصدر السابق**، ص331.

* – هو أبو جعفر أحمد بن زرقالة ، جمع مختارات توريات أستاذه في كتاب وصل بعنوان **رائق التحلية في فائق التورية**.

[32]– الطاهر أحمد مكي: المرجع السابق

*– ترجم له أحمد عيسى بك في **معجم الأطباء**،القاهرة، 1942م،ص113،11. و نُشر له مقال بعنوان **ابن خاتمة المربي و رسالته عن الطاعون** في مجلة الدين والثقافة بمدريد في أكتوبر1928م.

[33] – الطاهر مكي: المرجع السابق ص 101 .

[*] – ابن الأحمر(الأمير إسماعيل بن يوسف): **نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان**، ت محمد رضوان الداية ،عالم الكتب بيروت، لبنان، ط1986،1

[ص] ، ص156.